نظرات
في
التاريخ الإسلامي

محاضرة ألقيت بقاعة المحاضرات بمركز الدوحة الثقافي ، وذلك بدعوة من إدارة الثقافة والفنون بوزارة الإعلام والثقافة بدولة قطر ١٩٨٧/٣/١١م.

بسم الله الرحمن الرحيم ، باسم الله وحده ، ولا شيء معه دائماً وأبداً ، نحمده سبحانه وتعالى ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، وسيئآت أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد. اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد ، وعليك توكلنا وإليك أنبنا ، وإليك المصير، اللهم إنا نعوذ بك من الخطأ والخطل والخلل والزلل وسيىء القول والعمل ، ونصلي ونسلم على صفوة خلقك سيدنا محمد النبي الأمي، اللهم صل عليه وعلى آله ، ومن دعا بدعوته ، واهتدى بهديه، وعمل بسنته، إلى يوم الدين .. وبعد:

أحييكم بتحية الإسلام ، وتحية الإسلام السلام ، فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

منزلة التاريخ (*):

في الحقيقة حينما نتحدث عن التاريخ يجد الإنسان نفسه بين العديد من المسائل والقضايا ، فتاريخنا بعمقه، وبعرضه ، وبطوله ، يحتاج منا جهوداً متتابعة مخلصة لتحقيقه وتصحيحه. ونحاول الليلة إن شاء الله ، أن نلقي نظراتٍ في جوانب هذا التاريخ ، فنرجو أن نكون موفقين فيما نقول .

ولكن قبل أن نبدأ الحديث لماذا لا نسأل أنفسنا قبل أن يسألنا غيرُنا . لماذا التاريخ ؟ قد يقول قائل : حدثونا عن الحاضر ، حدثونا عن المستقبل ، أتريدون أن نعيش في الماضي وننسى ما نحن فيه ، وننسى ما نحن مقبلون عليه ؟؟

في الواقع إن هذا السؤال قائم ، وهو مطروح للأسف ، وموجود ، يُلقي به البعض حينما نتحدث عن التاريخ ، وندعو إليه يقولون :.. التاريخ ..

(*) سيلاحظ القارىء أن أسلوب هذه المحاضرة أقرب إلى لغة الحديث منه إلى اللغة المكتوبة ، ذلك أنها كانت فعلاً كذلك ، فلم تكتب قبل إلقائها (اللهم إلا رءوس أقلام تمثل عناصرها الرئيسية) وماهو بين يدي القارىء الكريم الآن ، تفريغٌ من الشريط المسجل ، قامت به -إدارة الفنون- حين نَشْرها ضمن الكتاب السنوي ، الذي يحوي مختارات من أعمال الموسم الثقافي .

وقد آثرت أن أتركها كما هي ، ولا أتدخل بإعادة صياغتها ، في ثوب اللغة المكتوبة ، فعذراً، ورجاءً ملاحظة ذلك عند القراءة.

التاريخ .. التاريخ .. ليس وراءكم إلا التاريخ ، يشغلكم الماضي فقط .. أين الحاضر؟ .. أين المستقبل ؟؟

في الواقع إن التاريخ ، حينما نتحدث عنه ، وحينما نتحدث حوله ، وحينما ندرسه ، وحينما نعيش فيه ، نحن لا نبتعد عن الحاضر ، فالتاريخ مرتبط بالحاضر، وثيق به ؛ فدراسة التاريخ هي في الواقع البداية الصحيحة لصناعة التاريخ ، من يحسن دراسة تاريخه ، يُحسن صناعة حاضره ومستقبله ، فنحن لا ندرس التاريخ من باب الترف الفكري ، أو لتزجية أوقات الفراغ ، أو للمتعة الذهنية ؛ ذلك أن الماضي والحاضر والمستقبل نقطٌ متتابعة على خط الزمن الدائم ، لا ثبات للماضي ولا للحاضر ولا للمستقبل. الحاضر سيصبح ماضياً والمستقبل سيصبح حاضراً، ثم بعدها يصبح ماضياً.

فالتاريخ مرتبط بالحاضر والمستقبل ؛ فهو بهذا علم الحاضر، وعلم المستقبل ، وأبداً ليس علمَ الماضي . وفي هذا يقول العلامة محب الدين الخطيب عليه رحمة الله:«لن تتجدد للمسلمين نهضةٌ إلا إذا عرفوا سلفهم علي حقيقته، واتخذوا منه قدوة لهم ، ولن يعرفوا سلفهم على حقيقته إلا بتطهير التاريخ الإسلامي مما ألصق به» حينما نقول تطهير التاريخ الإسلامي، نحن على وعي، بأننا لا نريد تاريخاً مناقبياً يتحدث عن المفاخر والأمجاد ، وإنما نريد دراسة التاريخ كلّه. دراسةَ التاريخ بكل مافيه وتحليله. ويقول أيضاً أستاذنا محب الدين الخطيب: « وقد أصبح من المفروض على كل من يستطيع تصحيحَ تاريخ صدر الإسلام أن يعتبر ذلك من أفضل العبادات، وأن يبادر له ، ويجتهد فيه ما استطاع ، إلى أن يكون أمام شباب المسلمين مثالٌ صالح من سلفهم ، يقتدون به ، ويجدّدون عهدَه، ويصلحون سيرتهم بصلاح سيرته.هذا المعنى نفسُه عبر عنه في عصرنا الحاضر، في أيامنا هذه ، المفكر المسلم الدكتور رشدي فكّار حينما قال :« إن غيبة التعرف الاستيعابي على الماضي هي أحد أضلاع المثلث الذي ينبغي أن نعرفه، أو أحد أعضاء المثلث الغائب في طريق نهضتنا ، وما نصبوا إليه من مستقبل» ويقول:« نحن حتى يومنا هذا لم نُخضع دورتَنا الحضارية، وهي قوة الارتكاز التي ننطلق منها، لم نُخضعها لعملية التاريخ ، ولا لفلسفة التاريخ ، بمعنى أنه كان من المفروض أن تعاد صياغة التاريخ

الحضاري لنا على مستوى علمي »وله في هذا كلام جيد نكتفي منه بهذا المعنى.

وإذا كان لنا -على غير ما أحب- أن نستشهد بأحد فلاسفة الغرب ، نجد «جوستاف لوبون» يقول:«في ماضي الأمم سرُّ حوادثها الحاضرة» فالتاريخ في الواقع ذاكرة الأمة . ولنا أن نتصور حينما يفقد الإنسان الذاكرة، والعياذ بالله ، نحن نعرف مريضا فقد الذاكرة، عندما تضيع منه ذاكرته يصبح طفلاً صغيراً يحتاج إلى من يعلمه. وأعرف رجلاً ، كان أستاذاً قديراً، والكثير ممن هنا يعرفونه ، أصيب بهدا المرض ، فكان مثالاً حياً لهذا ، نسأل الله له الشفاء، فقد صار طفلاً يحتاج إلى من يعلمه القراءة والكتابة. هكذا الأمم حينما يتشوش تاريخها ، ويضيع تاريخُها، تُسلم قيادها لغيرها. هذا يوجهها يساراً وهذا يوجهها يميناً. وهذا ما نحن فيه ، والعياذ بالله.

ومما يؤكد قيمة التاريخ أنه عقد ذات يوم مؤتمر عالمي لأساتذة التاريخ وخرجوا بقرار يقول :« إنه لو أمكن تأليف كتاب واحد منصف للتاريخ ، يدّرس في أنحاء العالم ، لما قامت أية حروب على الإطلاق .إن الحروب الطاحنة بين الدول توجد جذورُها في كتب التاريخ، والانتصارات والهزائم تُصنع أولاً في كتب التاريخ».وأظننا جميعاً على ذكر مما قرأناه، من حوالي أربع سنوات عن الأزمة التي قامت بين الصين واليابان ، حول تغيير بضعة أسطر في كتاب مدرسي ياباني . في الكتاب المدرسي أرادت اليابان أن تغير بضعة أسطر، فحدثت أزمة .. انظروا الوعي ، دولتان كبيرتان كل منهما على وعي بقيمة التاريخ ، هذه على وعي بأن هذه الأسطر القليلة ، والكلمات التي نعدها ضئيلة -لها أثر في صياغة العقول، وفي بناء الإنسان ، فأرادت أن تغيرها. والأخرى على البعد خارج الحدود، عينُها على كتب الدولة الأخرى!!

هذا في الواقع ينبغي أن يدلنا على قيمة التاريخ.

نجد في عالمنا نحن؟ نجد عجباً. منذ فترة قرأت خبراً عجيباً. يقول الخبر:« فرغ المستشرقون الروس في كلٍّ من موسكو ولينينجراد من إعداد أربعة

مجلدات ضخمة عن تاريخ دولة معينة، من الدول العربية(١)، من العصر الحجري حتى الوقت الحاضر». وأعلنت أكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتي ، أنها قامت بهذا العمل بناء على طلبٍ تقدمت به هذه الدولة في أواسط السبعينات ، وسوف يكون الإصدار الأول الذي تجري طباعته حالياً باللغة الروسية ، ومن ثمَّ يترجم إلى اللغة الإنجليزية، ثم العربية !!

هذا مفهومنا نحن للتاريخ .دولة عربية تطلب من أكاديمية العلوم الروسية أن تضع لها تاريخها فمن أي منطلق ،وبأي مفهوم ، وعلى أية فلسفة سيكتبون لنا هذا التاريخ ؟؟ ناهيك عن أنهم لا يعرفون العربية ، فيكتبون لنا تاريخنا بالروسية ، ثم يترجمونه إلى الإنجليزية ، ثم منها يترجمونه لنا إلى العربية ، فهذا من البلاء الذي يجعلنا نستعيذ بالله.

يقول الشهيد سيد قطب -رحمه الله- :«إن هناك أكثر من داعٍ إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي :لمصلحة الحقيقة، ولمصلحة العلم ، لخدمة العلم والحقيقة في ذاتها، ولمصلحة الأمة الإسلامية ، ،ولمصلحة العالم الإسلامي ، فالحقيقة وحدها تحتم علينا أن نعيد كتابة التاريخ الإسلامي من زاوية أخرى، هذه واحدة ، والثانية أننا نحن الأمة الإسلامية إنما ننظر إلى أنفسنا ، وإلى سوانا بعدسة صنعتها أيد أجنبية عن عقيدتنا وتاريخنا. وليس من مصلحة هذه الإنسانية أن ترى الحياة كلّها من زاوية واحدة ، لا تكشف عن كل جوانبها، وأن تسودها فكرةٌ خاطئة عن ماضيها وحاضرها، وأن تجهل الدوافع الكامنة لسيرها».

من مظاهر تشويه التاريخ :

هذا عن أثر التاريخ وقيمة التاريخ ، ورداً على السؤال الذي يقول :لماذا التاريخ؟ ولكن قد يعرض سؤالٌ آخر هو : وما أدراك أن تاريخنا مشوه؟ ولماذا ؟ .. تاريخنا الآن يدرس ، يدرّسه أساتذة مسلمون ، ويكتبه علماء مسلمون ويدّرس في الجامعات، والمدارس ، والحمد لله في عددٍ من الحصص

---

(١) هذه الدولة هي اليمن الجنوبية ، أيام وقوعها تحت قهر النظام الماركسي ، ولم نشأ أن نصرح باسمها ليلة إلقاء المحاضرة ، رعاية للجهة الرسمية التي دعت إلى المحاضرة ، وحتى لا نسبب لها أي حرج أو مشكلة.

كافٍ وعدد من المحاضرات كافٍ، وآلاف من الكتب موجودة ، ومئات من المراجع في التاريخ معروضة.

من قال لك إنه مشوه ؟ ..

الحقيقة هذا أمر يطول شرحه ، ولا أستطيع أن أشرحه الآن ، ولكن سأعرض فقط لنماذج من اثار هذا التشويه، وأعرض لنماذج من أقوال بعض العلماء، وبعض الكتاب ، وبعض الأدباء، وبعض الصحفيين ، وأرجو أن يكون ذلك سريعاً:

أحد العلماء المعاصرين توفي رحمة الله عليه، وهو رجل فاضل ، فاضل في علمه وفي خلقه، ولا نزكي علي الله أحداً، هذا الرجل العالم من رجال الفكر المعاصرين(٢)، في كتاب له عن مناهج الفكر الإسلامي ، يقول في هذا الكتاب بعد الافتتاحية مباشرة:« ولم يكن الإسلام ديناً مغلقاً ، بل سرعان ما انفتح العالم الإسلامي لكل داخل فيه، وسنرى بعدُ أحدَ خلفاء الأمويين يضيق صدرُه حين يسمع أن العدد الأكبر من المحدّثين والفقهاء المعاصرين له هم من أصول فارسية-وفي الأمويين روح جاهلية عمياء» أ.هـ بنصه. هكذا بلقاء!! يلقيها حكماً قاسياً. والذي يلفت النظر أن هذا ليس كتاب تاريخ، وليس كتاب سياسة ، وليس كتاباً يناقش الحكم ، ولا نظامَ الحكم ، لكنه كتابٌ في تاريخ الفكر ، ليس عن بني أمية.

ظهور هذه العبارة ، وانطلاقها ، وانفلاتها على سن القلم هكذا ، كطلقة المدفع القاتلة ، يدل على مدى حضورها في الذهن ، وعلى مدى سيطرتها على فكر صاحبها .. هو لايكتب في التاريخ ، لكن مجرد ذكر خليفة أموي أجج النار في قلبه ، فانطلقت كقذيفة المدفع وهو عالم جليل ، فما بالنا بغيره .. وانظروا الكلمة: جاهلية .. عمياء .. ، وصياغة العبارة وما فيها من تقديم وتأخير ، كل هذا يشهد بما هي مشحونة به من عواطف البغض والكراهية.

أيضاً قال أحد العلماء الأفاضل الأجلاء ، وقد سجل هذا في أحد كتبه ، وهو أيضاً رجل فاضل ، لا نعيب عليه لا في خلق ، ولا في دين ، ولا في

---

(٢) هو العالم الجليل الدكتور علي سامي النشار عليه رحمة الله ورضوانه، والكتاب المشار إليه، هو كتابه القيم (مناهج البحث عند مفكري الإسلام ص ٢)

حرارة إيمان، ولا في خوف على هذه الأمة[٣] ، بل هو ممن يعيشون لنهضتها وحضارتها ، ولكنه مع ذلك تفلت منه الكلمة، فيقول :« وعندي أن مصرع الخلافة الإسلامية يجب أن يسجل في التاريخ على أنه جريمة انتحار ، لا جريمة قتل ، فالمسلمون هم صانعو الهزيمة التي نزلت بهم سواء كان في هذا القرن ، أو في القرون الوسطى».

وهكذا يبرىء ساحةَ الأعداء ، ساحة الغرب ، وساحة الفرس ودسائسهم، وساحة الرومان وجرائمهم .. هكذا ينسى ، أو في الحقيقة لا يعلم ، كم قدّمت أمتنا من شهداء ، وكم خاضت من معارك ، حقاً تعرضت أمتنا في تاريخها لهزائم فمثلاً نحن أُخرجنا من الأندلس ، ولكن بعد أن غسلناها بدماء الشهداء ، وخضنا بها معارك لو دُرّست لأبنائنا علي حقيقتها ، لعرفنا كيف يكون الجهاد ، ولو أنها معارك انتهت بالهزيمة .. إنما هي شرف لهؤلاء الأجداد الذين نهوّن من شأنهم ونصمهم بما نصمهم به من العجز والفشل.ولو أحسنا دراسة تاريخنا في الأندلس ، لنشأت الأجيال التي تعرف كيف تستعيد مجد الأجداد ، وتثأر للآباء ، أما الإزراء ، والسخرية ، والاستهانة بما قدمه أسلافنا العظام ، والتحقير من شأن جهادهم ، والتهوين من صمودهم ونضالهم. فهذا هو الداء الوبيل ، الذي استشرى في أبنائنا، فكان ما نحن فيه !!

إن معاركنا مع«التتار» و«الصليبيين» لم تدرس إلا من المنظور الغربي ، ولو درّست على حقيقتها ، لقنا إن ذهاب الخلافة جريمةُ قتلٍ مع سبق الإصرار ، تواطأت فيها همجيةُ التتار ، .وعصبيةُ الصليبيين. ولكن في الواقع ، أيضاً ، مع هذا ، نحن لا نخلي أنفسنا من اللوم. فإذا كان هناك فعل فأيضاً قبول الفعل علينا نحن .

وأظن أن من أخطر الكتب التي ظهرت في هذا العصر كتاب (الإسلام ونظام الحكم) خرج صاحبه على إجماع المسلمين ، وهو كتاب مشهور.نجد أن وراء هذا الفكر الذي أملى الكتابَ على صاحبه، سوءُ دراسته للتاريخ، فيقول:«لولا أن نرتكب شططاً في القول ، لعرضنا على القارىء سلسلةَ الخلافة إلى وقتنا هذا-وطبعاً الكتاب ضد الخلافة - لعرضنا على القارىء

---

(٣) هو الداعية المعروف فضيلة الشيخ محمد الغزالي ، وكتبه-وبخاصة الأخيرة- مشحونة بمثل هذه الآراء ، بل بما هو أخطر من ذلك في هذا الباب.

سلسلةَ الخلافة إلي وقتنا هذا ، لنرى على كل حلقة من حلقاتها طابعَ الغلبة والقهر»هكذا .. كل سلسلة الخلافة عندنا علي حلقاتها طابع الغلبة والقهر.. ولا ندري كيف عاشت الخلافة هذه القرون المتطاولة ، وفيها من الظلم مافيها. فهو طبعاً لا يعي من تاريخ أمتنا إلا غلبةَ الخلفاء، وإلا قهر الخلفاء للأمة الإسلامية. ومن هنا أباح لنفسه أن يهاجم مبدأ الخلافة.

مثال آخر : نرى أحد الأدباء[٤] يؤلف مسرحية عن «جميلة بوحريد»، المجاهدة الجزائرية ، وهي مسرحية شعرية ، والمسرحية رائعة، من حيث إنها مسرحية شعرية جيدة ، وكان لها صدى في وقتها. هذا الأديب يُجري على لسان إحدى المجاهدات الجزائريات كلاماً، حينما عذبها الفرنسيون في السجن، واشتد بها العذاب ، ماذا قالت؟ على لسانها . يقول :« يا ويلتاه!! منذ عهد بني أمية لم تحدث مثل هذه الجرائم» هكذا !! -تتحدث عن جرائم الفرنسيين أم جرائم الأمويين ..؟ إذا كانت هذه الجرائم لا تصل إلي جرائم الأمويين ، فأنت تغفر للفرنسيين بالطبيعة، يعني تلقائياً، إذ كنا صنعنا بأنفسنا في قرننا الأول -الذي هو خير القرون كما قال صلي الله عليه وسلم- أكثر مما فعله الفرنسيون بنا فما الغريب إذا؟ وهذا أثر دراسة التاريخ المشوه في أعماقنا.

وآخر البدع إحدى الصحف ، منذ سنتين أو ثلاث تقريباً، صحيفة عربية واسعة الانتشار(٥)، نشرت في الصفحة الأخيرة عنواناً غريباً يقول :«هارون الرشيد يعيش في إيطاليا» انظروا ماذا تحت العنوان .. صورة لمخرج ومنتج سينمائي إيطالي ، وأمامه بعض الفتيات من الوجوه الجديدة الراغبات في العمل في السينما وهو يقلبهن ، كما يقلب النخاس العبيد ، يتفرج عليهن ويستعرضهن ، ويبحث بينهن من تصلح ومن لا تصلح للسينما. ماعلاقة هذا بالعنوان؟ كأن المحرر يقول لك بهذه العبارة التي كتبت تحتها-أي

---

(٤) هوالكاتب الشاعر الروائي عبد الرحمن الشرقاوي ، وهو أيضاً الماركسي الخطير، الذي استخدم قلمه في حملة شرسة ضد الإسلام ، تستر فيها بما سمي كتابات الشرقاوي الإسلامية ، ولم تكن إلا قناعاً اختفى وراءه ، وهو يفرغ حقده الخبيث ضد الإسلام وتاريخ الإسلام ، زاعماً أنه (يغني لمجد الإسلام)كما قال عنه قبيلُه من (الرفاق الحمر)

(٥) هي صحيفة الوطن الكويتية ، العدد ٢٣٩٢ في ١٤٠١/١١/٧هـ الموافق ١٩٨١/٩/٦م.

الصورة- «هكذا . يعيش هذا المخرج السينمائي بين النساء . كهارون الرشيد في عصره». والصحيفة لها أثرها ولها خطرها.الصورة بثتها وكالات الأنباء العالمية ، فلما وضعها أمامه المحرر وهو يهيئها للنشر ، وثب إلى ذهنه من مذخور ثقافته الصورة التي استقرت لديه عن هارون الرشيد، فكتب ما كتب .

ومن هذا ، في الواقع ، نماذج كثيرة جداً تجعلنا نؤكد أن تاريخنا دُرس دراسة خطيرة ، تكاد تُضيّع فعلاً عقولنا وأذهانَنا ، وتبدد خطواتنا.

وإذا كان لنا من نظرات تدقيقية أو تحقيقة في التاريخ ، فلست أدري إلى أيها ننظر الآن وأيها ندع ، وأمامي في الحقيقة أشياء كثيرة تحتاج إلي مراجعات. وأطرح هذه الموضوعات ، ففيكم من العلماء الشباب ، ومن شباب العلماء من له في هذا إن شاء الله دورٌ .

مسائل تحتاج إلى دراسة :

مثلا نأخذ يوم السقيفة واختيار أبي بكر ، ومن امتنع ، ومن لم يمتنع ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيعة. لازال هذا الموضوع يكتب فيه الكاتبون ويلغ فيه الوالغون ولم يبحث بعد .

التهمة التي ألقيت على الخليفة الثالث- ذي النورين- عثمان بن عفان رضي الله عنه: أنه كان يميل لبني أمية - صاحب واسطة بلغة العصر- وأنه كان مرفهاً منعماً، وأنه أخذ أموال الدولة.

(كنت من سنوات بدأت هذا البحث ، لكنني شُغلت عنه) والبحث سهل ، لكنه يحتاج إلى وقت وإلى جهد، يقوم على قراءة مراجع التاريخ الأولى ، واستعراض أسماء من ولاهم عثمان بن عفان -نستعرض كل الأسماء ، ونُجري دراسة عن أنسابهم ، لنرى هل فعلاً كانوا جميعاً من الأمويين ، وما النسبة التي كانت منهم من الأمويين ، وهل هذه النسبة هي نفس النسبة التي كانت موجودة في أيام عمر، وأيام أبي بكر الصديق-رضي الله عنهما- وتبين لي، بمجرد الملاحظة وأنا لم أنته من البحث بعد، أن هذه فرية ، والواقع يكذبها. وقالوا إن عثمان عزل كثيراً من الولاة وولى مكانهم

-غلمة- باللفظ هذا مكتوب -غلمة- من صبيان بني أمية ، لا صلاح لهم ولا كفاءة عندهم إلا القرابة من الخليفة . هذه الأحكام الجائرة الفظيعة ، هذه موجودة. وعند التدقيق سنرى أن هذا عقلاً غيرُ مقبول ، وواقعاً غيرُ صادق ، ولكن للأسف نحن ما زلنا ننقل أحكامنا في التاريخ عن غيرنا.يقولون أيضاً: إن عثمان كان ليناً وكان ضعيفاً، وكان هذا سببَ الفشل المزعوم الذي نسبوه إليه. وأقرأ فأجد مواقف رائعة لعثمان بن عفان: استدعاء للولاة والقواد من أقاصي البلاد، ومحاسباتٌ شديدة، لا إخالها تقل عن عمر في شدته ودقته، لكن هكذا تطلق الأحكام الجائرة«عثمان كان لينا ضعيفاً».

الفتوحات والأموال التي جاءت من الفتوحات ، وكيف غرق المسلمون -كما قال أحد الباحثين- كيف غرق المسلمون في الترف والجواري والغناء، بعد الفتوحات ،كأن المعني بإيجاز أن المسلمين فتحوا البلاد ، وأخذوا ذهبها ونساءها وغرقوا فيه ، وانتهى الأمر.

في أربعين سنة انتهى المسلمون ، وانتهى الإسلام -بعد ما انتهَوا من الفتوحات، وفتحوا بلاد فارس والروم ، أخذوا الأموال ، والنساء ،وانتهى الأمر - هذا في الواقع تلخيص غريب ، ويحتاج إلى دراسة ، لنرى هل صحيح هذا الكلام أو غيرصحيح ؟ .. البلاد التي فتحت معروفة شبراً شبراً وجزءاً جزءاً ، ومعروف ما فتح عَنْوة ، وما فتح صلحاً، والغنائم معدودة ومحسوبة ، وما خص كل واحد .. كم جملاً .. وكم سيفاً .. وكم درهماً .. وكم كذا .. لماذا لا نحسبها؟ أبحاث في حاجة إلى إجراء وفي حاجة إلى دراسة.

ليت لنا من يقوم بهذا البحث ، سنرى فعلاً كم من القناطير من الذهب التي يزعمونها لا وجود له ، وكم مرة عفا المسلمون ، فلم يغنموا مالاً وردوه إلى أصحابه ،وكم مرة عفا المسلمون عن الأسرى من الأعداء فلم يسترقوا ولم يسبوا

نحن نتمنى أن يقوم أحد بهذا البحث ؟

قضية التحكيم من أكبر القضايا، أكبر أكذوبة في التاريخ وما زالت تتردد، ولا أدري لماذا لا تعالج..؟

قضية الرق والجواري في المجتمع الإسلامي ، قضية في حاجة إلي دراسة؟ بالصدفة كنت أبحث في كتاب ، من أشهر الكتب ، وأشهر المعاجم ، معجم البلدان لياقوت ، فوجدت في مقدمته أن ياقوتاً الحمويّ صاحب معجم البلدان ، وصاحب معجم الأدباء كان عبداً أعتقه سيدُه. سبحان الله العلي العظيم ، هذا العالم الجليل من أرقاء المسلمين، وبعد ذلك يقال : إن الإسلام هو الذي أذل الأرقاء ، وإن الغرب هو الذي حررهم. هذا العالم الجبار الذي نعيش ، نحن على علمه كان رقيقاً.

نريد دراسة عن الرق بين الإسلام والملل والفلسفات الأخرى ، قديماً وحديثاً، نريد دراسة تبين لنا الموقف الفكري من الرقيق، والنظرة إليه، عند هذه المذاهب والملل وعند الإسلام.

لقد كان أرسطو قمة الفكر الفلسفي يرى «أن الرقيق آلة وإن كان ذا روح، ويرى أن من الناس ، من يكونون عبيداً بطبيعتهم» وغير خاف عليكم المدينة الفاضلة لأفلاطون . وموقفه من الرقيق.. فما نظرة الإسلام إلى الرقيق؟

كما نريد من هذه الدراسة أن تتبع واقع الرقيق منذ فجر التاريخ ، وتوازن بين حال الرقيق في المجتمع الإسلامي ، وحاله في المجتمعات الأخرى ، وتبين الإصلاحات العظمى التي جاء بها الإسلام في مجال الرق وتحرير الأرقاء.

أما أن يقر في أذهان مثقفينا(ثمرة عصر التنوير) -أن الإسلام هو الذي أنشأ أسواق العبيد ، وأن أوربا هى التي حاربت تجارة الرقيق ، وحرّمت الاسترقاق . فهذا ضربٌ آخر من التزييف والتضليل الذي تعرضنا له.

الحقيقة أشياء أخرى كثيرة ومثلاً -المقولةالشائعة إن الدولة الأموية كانت دولة متعصبة للعرب ضد الموالي- وقرأت لأحد الباحثين المتشبتين كلمة غريبة يقول فيها:«إن الموالي ، حيث لم يجدوا لهم دوراً في القيادة ، وفي الحرب ، انكفئوا علي العلم ، ولذلك اهتم الموالي بالعلم..» هذه القسمة غير صادقة. يحضرني الآن أسماء كثيرة من قواد الحروب كانوا من الموالي في عصر بني أمية.. على سبيل المثال «دينار أبو المهاجر» من فاتحي إفريقية هذا كان من الموالي . على سبيل المثال أيضا « موسى بن نصير» كان من سبايا عين

التمر، من الموالي ، وهو وأبناؤه كانوا قواداً. ومن يبحث سيجد كثيراً من الموالي كانوا سادة وكانوا قواداً، وطارق بن زياد .. كانوا قادة .. حقائق أصبحت «كليشهات» نأخذها وننام عليها ونستريح.

أيضا الترف والبذخ في عهد هارون الرشيد .. خمر ونساء .. مسألة في حاجة إلى إعادة نظر .. وفي حاجة إلى إعادة دراسة ، لأن هذا العصر يجب أن يطهّر وأن يطهر صاحبه.

قضية سقوط بغداد وانهزام المسلمين .. وهل انهزم المسلمون حقاً ؟ هذه قضية لنا فيها كلام الليلة بإذن الله

دور الأتراك في التاريخ الإسلامي وبخاصة في التاريخ الحضاري ، كلنا نرجع إلى كشف الظنون لحاجي خليفة التركي ، ولكن لا تجد له ذاكراً شاكراً، على حين يحظى عمل (بروكلمان) بالثناء والذكر دائما ً، مع أن المختصين يعرفون تماماً فضلَ عمل حاجي خليفة التركي ، على عمل (بروكلمان) الألماني، ولكنها العقدة إياها.. وهناك كتاب كبير(شقائق النعمان)، من مجلدين ، في علماء الخلافة العثمانية .. هل صحيح الأتراك ، كما درسنا؟ قرأتُ لتوماس أرنولد «توماس أرنولد» لا يجامل يقول:« إن المسلمين حينما فتحوا القسنطينية ودخلوا كنيسة أيا صوفيا، وكان المسيحيون في صلاة يضرعون الى الله أن يرد عنهم هذا الجيش الزاحف ، فارتاع المصلون حينما فُتحت أبوابُ الكنيسة، فنادى محمد الفاتح : أكملوا وأتموا صلاتكم ، ووقف على باب الكنيسة وردّ الجنود ، قائلاً لهم : لا تدخلوا عليهم حتى يكملوا صلاتهم».. وكلام كثير عن تسامح الأتراك كتبه توماس أرنولد .. عن تسامح الأتراك وعظمة الأتراك في قيادة الدعوة الإسلامية ، نحن لا نذكر إلا أعمال جمال باشا في الشام وأنه قتل خمسين .. ستين .. فليكن جمال باشا مخطئاً ، ولا نريد أن نعفي أحداً من ثمرة عمله وخطئه ، لكن نريد أن نرى الصفحة كاملة .. لا نرى جانباً ونترك جانباً آخر.

المماليك ودور المماليك .. عصر المماليك ، عصر الموسوعات ، وأنا أقول لكل إخواننا .. المراجع التي نرجع إليها«كلها» وأرجو أن لا أكون مخطئاً في هذا التدقيق وفي هذا التأكيد بكلمة«كل». كلها ثمار عصر المماليك .. الكتب الكبرى كلها من ثمار عصر المماليك .. ويأتي المحاضرون الذين

يتصدرون في المحاضرات العامة ويؤكدون .. أن المماليك لا يعرفون إلا السيف .. ويقولون كان المسجد عند المماليك بناءً ضخماً فقد روحه .. من قال ..؟ مسجد السلطان حسن الذي يسمونه الهرم الإسلامي لعظمه وضخامته، في الواقع لا يسّمى مسجد السلطان ، إنما اسمه الذي سمي به يوم أنشىء ـ مدرسة السلطان حسن .. وندخله فنجد فيه فعلاً، مدرسة للطلاب الشافعية ، ومدرسة للطلاب الأحناف ، ومدرسة للطلاب المالكية، ومدرسة للطلاب الحنابلة. وفوق هذه المدارس مساكن للطلاب ، والأثر موجود ولا زال من عمل المماليك . أعظم المستشفيات كانت من عمل المماليك .. كيف نقول إن المماليك مجرد عسكريين فقط ..؟

الإسلام في الهند . نحن لا نعرف ، ولا يدّرس في كتبنا ولا في معاهدنا أن الهند ظلت طول التاريخ دولة إسلامية، يحكمها الإسلام .. علماء الهند، وما لهم من دور في الفكر الإسلامي ، هذا جانب معتم تماماً في ثقافتنا التاريخية؟

كيف أخرج المسلمون من الأندلس ، والمعارك التي خاضوها والصمود الرائع أمام الفرنجة والصليبية الحاقدة؟

وآخر البلايا والرزايا ما ندرسه دائماً من «أن نهضتنا الحديثة جاءت على طلقات مدافع نابليون».. أذكر حتى في كتب الأدب يقال .«ولما استيقظ الشرق على طلقات مدافع نابليون».. سبحان الله .. ، وهذا كلام يتكرر دائماً، وأصبح كأنه قانون علمي لا جدال فيه. تريد أن نراجع عصرنا في ذلك الوقت ، هل كنا فعلاً نتمخض ونستعد للقيام بنهضة قبل أن يجيء نابليون، أم أن نابليون هو الذي أيقظنا فعلاً ؟؟ يوماً بعد يوم تتجمع عندي وثائق وأدلة تثبت أن نابليون لم يكن هو سبب النهضة ، وإنما هو الذي أدى إلى انحراف النهضة ، هو الذي انحرف بالنهضة نحو الغرب ، وشتت الجهود، هذا موضوع ينبغي أن يعاد النظر فيه لكي تعرف الأمة أين تسير وكيف تسير .

الآن بعد ما بينا قيمة التاريخ وأكدنا أنه مشوه وبينا لمعاً ولمحاتٍ من هذه الموضوعات والقضايا التي ينبغي أن ندرسها ، أحب أن أقف أمام قضيتين ، وأسأل الله أن يوفقنا في عرضهما ، وألا أطيل عليكم في عرض القضيتين :

(أ)- قضية التحكيم :

إحدى القضيتين : القضية التي أشرنا إليها ، قضية التحكيم ، التحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما. هذه القضية تدّرس في تاريخنا، كما تعلمون هكذا:«في أثناء المعركة معركة صفين ، أوشكت جنود الإمام علي أن تحرز النصر. فقال معاوية لعمرو بن العاص:«فكّر في حيلة» فكّر عمرو في حيلة، فرفعوا المصاحف ، وقالوا : نُحكّم كتاب الله ، فقال الإمام علي لأصحابه : نستمر في الحرب لأن هذه خُدعة، فخالف جنود الإمام علي عن أمره، وقالوا: لا يسعنا أن يُرفع المصحف ، ولا نحتكم إلى المصحف، فتوقف القتال . وقالوا : عينوا حكماً من هنا وحكماً من هنا، فعينوا حكمين ، أبو موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص. واجتمع الحكمان، وجاء وقت إعلان نتيجة التحكيم. وأذكر - وهذا تاريخ أيضاً- أن أستاذنا وهو يشرح لنا هذه النقطة يمثل طريقةَ عمرو بن العاص ، وطريقة أبي موسى الأشعري ، ويرسم بيده صورة أبي موسى الأشعري:رجل فاضل وقور ، وعمرو بن العاص يتخابث له في دهاء ومكر ، ويقول له : تقدم أنت ، فأنت صاحب سابقة ، وفضل ، ومنزلة، ويسكره بالمديح والثناء، ويرسم صورة غريبة عجيبة ، فيتقدم أبو موسى الأشعري ويصعد المنبر ، ويقول : إنني نزعت علياً كما نزعت سيفي هذا ، وينزل أبو موسى الأشعري ، فيصعد عمرو بن العاص ، فيقول : وأنا ثبّت معاوية كما ثبّتُ سيفي هذا ، وينتهي الأمر. وتحدث الفوضى ، ويقول أبو موسى لعمرو بن العاص : ما على هذا اتفقنا ؟ فيقول له : أنت خَرِف ، ويقول الآخر : أنت كذا .. هذا موجود في كل كتب التاريخ . هذا الكلام ، في الحقيقة ، عند التدقيق نجد أنه يحمل في طياته آيات كذبه وافترائه.

الخطورة في هذا أنه يرسم صورة بشعة في أذهان أولادنا. كان بودي أن آتي بصفحة من كتاب الصف الخامس الابتدائي الذي يصور هذه المعركة ، وهذه القضية ، وكيف يقدم لطالب في الصف الخامس الابتدائي.

ذات يوم في بيتي سألني ، تلميذٌ صغير من أبنائنا في الصف الخامس الابتدائي قائلاً: هل كان عمرو بن العاص مسلماً؟ فلما ظهر الفزع في عينيّ تظاهر بالتشاغل عني ، محاولاً الانصراف ، فاستوقفته ، وأخذتُ بيده، فإذا بها كتابُ التاريخ . كان المسكين يقرأ في هذه النقطة، كيف أن عمرو بنَ

العاص صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكون خائناً بهذه الدرجة !! وكيف أن أبا موسى الأشعري، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقاضي قضاة المسلمين ، يكون مغفلاً بهذه الدرجة : كيف يكون هذا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وذات ليلة كان فيه خصومة بين جماعة ، وكنا نحن نُصلح بينهم ، فإذا بأحد الجالسين ، وكان ممن يساعد في الصلح ، يقول : ياجماعة لاتتعجبوا ولا تغضبوا، الصحابة تقاتلوا على الدنيا !! يقول هذا مُسوّغاً ومبرراً ماحدث من المتخاصمين ، من محاولات لأكل أموالٍ بالباطل. العجيب أن هذا الشخص الذي قال هذا الكلام من المتخصصين في تدريس الحديث .. لكن هكذا تفعل ثقافته التاريخية .. فقلت له: كيف تقول إن الصحابة تقاتلوا على الدنيا؟ فقال :« الله !! يعني هم كانوا في صفين وفي الجمل بيعملوا إيه».

هذا من دراسة التاريخ ، وتلخيصه بهذه الصورة.إذا أردنا أن ننظر لقضية التحكيم . في الواقع. وبأسلوب علمي ، نجد أن ممن تولى كِبرَ هذه القضية كتابُ (الإمامة والسياسة) المنسوب لابن قتيبة، وأيضاً هذه نقطة أخرى، هذا الكتاب لقيط ، لا يعرف له نسب . وقد حقق هذا العلامة محب الدين الخطيب ، وأثبت بأدلة قاطعة أنه ليس لابن قتيبة.ومع ذلك ، فهذا الكتاب ما زال مرجعاً بعد خمسين أو ستين سنة من تبيين محب الدين الخطيب أنه كتاب لقيط، مازال مرجعاً ، ونقرؤه ضمن مصادر كثيرٍ من الكتب الجادة ، لو أردنا أن نراجع قضية التحكيم ، ونعرضها على ميزان العقل ، والمنهج العلمي ، الهادىء الواضح، بدون انفعال ينبغي أن ننظر فيما يأتي :-

أولاً - مسألة رفع المصاحف هذه ، تجعلنا أمام عدة أسئلة :

- كيف كانت هذه المصاحف ؟ حجمها ؟ شكلها؟ طريقة تجليدها. صلاحيتها لأن ترفع على الرماح.
- كم كان عددها؟
- وهل كانت المصاحف في ذلك التاريخ متاحة لكل من يريد أن يتملك مصحفاً؟
- وهل كانت الكتابة شائعة ، بصورة تجعل عامة الجيش يحملون مصاحف

يرفعونها؟

- وعلى فرض إمكان ذلك ، فهل كان حال الجندي الخارج لميدان القتال تسمح له بأن يحمل المصحف معه؟!

نحن نعلم أن عثمانَ بنَ عفانَ رضي الله عنه كتب مصاحف الأمصار الستة ، ومحا ما عداها، كما هو معروف. فعندما كُتبت هذه المصاحف الستة لم يكن غيرها في العالم. فلو قدّرنا الزمن بين كتابة مصاحف عثمان رضي الله عنه، وبين وقعة صفين التي زعموا أن المصاحف رفعت فيها، لو قدرنا هذا الزمن بنحو عشر سنين، فكم يكون عدد المصاحف التي كتبت ؟! مائة ، ألف ، ألفان .. كانت المصاحف تكتب باليد على الرّق(٦)، وكان الرّق نادراً غير ميسور، وكانت الكتابة في الناس قليلة غير شائعة لا يحسنها إلا أفراد. فكم عددُ المصاحف التي تكون قد كتبت في هذه المدة من الزمن ..؟ وأياً كان العدد ، وعلى فرض كثرته ، فهل كان المصحف الذي يكتب على الرق مجلداً بصورة تيسر حمله والانتقالَ به ؟ وعلى فرض ذلك ، فهل كان وزنه يسمح بحمله ورفعه على أسنة الرماح؟

ثم ما حاجة المحاربين إلى المصاحف ، وهم في الميدان على ظهور الخيل ، أو يقاتلون راجلين .. ؟ أسئلة تطرح نفسها وفي حاجة -لاشك- إلى جواب ، فهذه قضية تضع علامة استفهام كبرى ؟!

ونتمنى على إخواننا دارسي تطور الكتابة وتاريخها وأدواتها، أن يبحثوا في طريقة التغليف والتجليد ، والكتابة في ذلك الوقت ، وهل كان ذلك ممكناً ؟ هذه قضية ، ولتكن قضية جانبية.

ثانيا - إذ جئنا إلى موضوع التحكيم من أساسه نجد إماماً مثل الإمام ابن العربي -رضي الله عنه- يقول : « وقد تحكّم الناسُ في التحكيم ، فقالوا فيه ما لايرضاه الله ، وإذا لحظمتموه بعين المروءة ، دون الديانة ، رأيتم أنها سخافة حمل على سَطْرها في الكتب في الأكثر عدمُ الدين ، وفي الأقل ، جهل متين».ابن العربي مضت عليه قرون ، وكلامه هذا موجود. ولكن لماذا لا يُعرض حتى بصفته رأياً آخر في القضية ..؟ لماذا نختار الرأيَ

---

(٦) الرّق هو نوع من جلد الغزال ، يعالج بعد دباغه بطريقة خاصة ، تزيل ما عليه من شعر وفضلات، وتجعله صالحاً للكتابة.

الذي هو اتهام صريح للصحابة ، ونترك هذا الرأي.

يقول انظر: «بعين المروءة، دون الديانة»، كأن الأمر هنا لا يحتاج إلى حسّ وإلى عاطفة دينية ليرفض هذا الكلام ، بل المروءة تكفي. المروءة التي يمكن تفسيرها هنا بمعرفة طباع الناس، والمواقف التي كانوا فيها. أو يمكن تفسيرها بأنها العقل والفهم ، والذكاء الفطري. وأيّاً ما كان الأمر، فابن العربي لم يستنجد ، ولم يستثر المشاعرَ الدينية لرفض هذه الخرافات. فليس في حاجة إلى ذلك ، وهذا من دقته.«حمل على سَطْرها في الكتب شيئان: في الأكثر عدم الدين (وعدم الدين هذه تفسيرها طويل ومعروف) . وفي الأقل جهلٌ متين». لا أدري نحن نسطرها الآن في الكتب تحت أيٍّ منهما ؟؟

يقول ابن العربي أيضاً :« هذا كله كذبٌ صُراح ما جرى منه حرفٌ قط ، وإنما هو شيء أخبر عنه المبتدعةُ ووضعته التاريخيةُ للملوك ، فتوارثه أهل المجانه والجهارة بمعاصي الله» ورحم الله ابنَ العربي وغفر الله لنا وله ، مازلنا ، نحن للأسف، نصدِّر هذا الكلام ونروّجه.

نريد إذن أن نخضع هذه الأخبار عن التحكيم ، أو هذه القصة التي ندرسها نحن ، إلى العقل والمنهج العلمي. أول شيء نسأل فيمَ حُكّم الحكمان ؟ ما الموضوع الذي كان الخلاف حوله. وطُلب من الحكمين الفصل فيه ؟ القضية كيف كانت ؟ الحكمان حكّما في ماذا ؟ هل حُكّما في الخلافة؟ ومن هو الخليفة حتى يأتي عمرو ويقول أنا أثبت معاوية ، ويقول أبو موسى الأشعري أنا خلعت علياً. وهل كان معاوية خليفة ؟ نقطة لابد أن ننظر فيها وندقق فيها ، ما دمنا نبحث بحثاً علمياً دقيقاً.

القضية ، كما نعلم ، أن عليّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، بويع بالخلافة بيعة صحيحة، وكان التقليد ، وكان العرف السائد ، وكان النظام ، أن الخليفة يُقرّ من حكام الولايات من يقر .. ويعزل من يعزل .. مثل العرف الدستوري الموجود الآن إذا تغير رئيس الدولة ، تعتبر الحكومة مستقيلة ، تعتبر الحكومة قد انتهت مدتها، وقد يختار نفسَ الحكومة ، وقد يغير .. إذاً تولى الإمام علي ، فأصبح حكامُ الأقاليم ومنهم معاوية كأنهم مستقيلون ، أو كأنهم معفوّن من أعمالهم. الإمام عليّ أقر من أقر ، ولم يقرّ معاوية ولم يعزله، ولكن معاوية رضي الله عنه كان قد

أعلن أنه قَبْل البيعة ، لابد من بحث قضية عثمان، والقصاص من قتلة عثمان بن عفان. وسيدنا معاوية رضي الله عنه هنا ولي الدم ، فيرى أن دمَ الخليفة عثمان ابنِ عفان يجب أن يؤخذ به ، ويجب أن يُقتصّ من قتلته. فبدأ معاوية رضي الله عنه ينادي بأنه لابد من بحث قضية مقتل عثمان بن عفان، والقصاص من قتلته قبل البيعة. إذاً كان الخلاف هو هل البيعة قبل القصاص ، أم القصاص قبل البيعة ؟

وكان الإمام علي رضي الله عنه يرى أن الأمر ليس بهذه السهولة ، فقتلة عثمان كانوا جماعة غيرَ محصورة، ثم إن لهم أنصاراً، وراءهم رجالٌ وثوار ، وكان هناك من يحرضهم ، وهؤلاء كلهم كانوا جناة. ويحتاج القصاص أن يكون من كل هؤلاء ، فيحتاج الأمر إذاً إلى تروٍ وإلى بحث واستقصاء. ولم يكن الإمام علي رضي الله عنه بالذي يفرط في دم عثمان ، حاشاه. ولم يكن معاويةُ رضي الله عنه متمحلاً ، ولا متعللاً ، وهو يرفض الدخول في الطاعة قبل القصاص من قتلة عثمان. ولكن القضية وجهة نظر أياً كان .

وكان الخلاف بين علي ومعاوية ، في حقيقته، ليس حول الخلافة ، ومن هو أحق بها، وإنما هو بالتحديد كان حول أيهما أسبق .. البيعة والدخول في الطاعة أم القصاص من قتلة عثمان!

هذا هو موضوع الخلاف ، وهذه هي القضية التي طُلب من الحكمين أن يحكما فيها.

هذا هو موقف طرفي القضية القانوني ، على حد تعبير الأخ الكريم الدكتور محمد سليم العوا ، الموقف القانوني للطرفين . طرفي القضية ، الإمام علي كرم الله وجهه كان إمامَ المسلمين وخليفتهم وأمير المؤمنين بمقتضى البيعة. معاوية لم يكن والياً على الشام ، حيث لم يكن قد أقره الإمام علي ، كما قلنا، ففقد مركزه الرسمي وإن لم يفقد مكانه الفعلي ، الواقعي ، وفي الوقت نفسه كان وليَّ دم عثمان ، المطالبَ الشرعي بالقصاص من قتلته، يقود جماعة معه مناوئين، فقد اقتنع برأيه جمعٌ من أهل الشام ، وناصروه بصفته وليَّ دم عثمان، الذي قتل مظلوماً ، ومن حقه أن يجاب إلي طلبه، قبل أن يُبايع ، ويدخل في الطاعة.

إذا هذا موقف الحكمين ، وهذه هي القضية. معاوية ليس خليفة، وليس

والياً بصفة رسمية، وإنما هو كان والياً، وإنما هو ثائر يريد من الإمام أن يحكم في قضيته قبل أي عمل. والإمامُ علي ، إمامُ المسلمين. هذا هو موقف الطرفين. القضية ليست الخلافَ حول شخص الخليفة ، فلم يكن معاوية أبداً حتى هذه اللحظة قد فكّر ، ولا أعلن ، ولا نادى بنفسه خليفة.

وبتعبير العلاّمة محب الدين الخطيب رحمه الله:« هذه نقطة المغالطة التي هزأ بها مؤرخو الإفك المفترى ، فسخروا بجميع قرائهم ، وأوهموهم بأن هناك خليفتين ، أو أميرين للمؤمنين ، وأن الاتفاق بين الحكمين كان على خلعهما معاً .. وهذا كله كذبٌ وافتراء».

إذا نظرنا لموضوع ولشخصية الحكمين ، فمن الحكمان؟ الحكمان هما أبو موسى الأشعري رضي الله عنه وأرضاه، هذا الرجل الذي له قدم صدق في الإسلام ، وله سبق، ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم على عدن ، وكذلك ولاه عمر بن الخطاب ، وكذلك ولاه عثمان بن عفان على البصرة ، ثم على الكوفة ، وظل والياً عليها إلى أن قُتل عثمان رضي الله عنه ، وهو معروف بالتقوى ومعدود من الصحابة المفتين ، ومعدود من الصحابة الرواة، ومعدود في هذا الباب مع علي بن أبي طالب وعمر وأم سلمة ، وكان ممن حفظ القرآن وعلّمه. وقد اختصه عمرُ بكتابه الخالد في القضاء وآدابه، الذي أدار عليه ابنُ القيم كتابَه:«إعلام الموقعين» تقريباً، اختصه بهذا الكتاب عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه. هذا القاضي الذي من شأنه أن يكون ذكياً حصيفاً لا يخدع من المتقاضين ، ولا من المتهمين ، ولا من الشهود ، هذا هو أحد الحكمين.

الحكم الثاني هو عمرو بن العاص رضي الله عنه ، كان من أحب الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، انظروا هذا الصحابي الطاهر الجليل الذي يقول :« صحبتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ملأت عيني منه إجلالاً وهيبة له. ولو قيل لي صفه ما قدرت على أن أصفه».

هذا الرجل الذي قال له النبي صلى الله عليه وسلم وقد حضرت الرسولَ صلي الله عليه وسلم قضيةٌ «اقض ياعمرو» يطلب منه الرسول صلي الله عليه وسلم أن يقضي في قضية بمحضره ، فيقول للرسول صلى الله عليه وسلم:« أأقضي وأنت موجود؟!» فبشره الرسول صلى الله عليه وسلم، بأن

له أجرين إن أصاب ، وأجر إن أخطأ.أمثل هذا يُتهم في دينه، ويتاجر بمسألة التحكيم؟!!

هذان هما الحكمان !! وهذه هي القضية !!

كيف يقال إذاً : إنهما حكما بخلع علي ومعاوية ، أي كيف يحكمان في أمر لم يُعرض عليهما أصلاً ، ألا يشهد ذلك صراحةً باختلاق ذلك الكلام الذي زعموا أن عمرا وأبا موسى قالاه على المنبر وبالتالي ، تسقط هذه الرواية المشهورة من أصلها، وتنهدم على رأس أصحابها.

ولعل أبلغَ دليلٍ على اختلاق هذه الصورة المسرحية الساخرة، التي تزري بصاحبين جليلين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم -هو ما جاء في ديوان الشاعر ذي الرّمة من مدحٍ لحفيد أبي موسى الأشعري (بلال بن أبي بردة بن أبي موسى) ، فقد سجل ذو الرّمة موقف أبي موسى في قضية التحكيم ، وجعله من مفاخره ، ومآثره، ومناقبه ، التي يُمدح بها، هو وأحفاده، قال ذو الرّمة:

أبــوك تلافى الــدينَ والنــاس بعــدمــا تشــاءوْا وبيتُ الــدين منقــطعُ الكِسَــر
فشــدّ إصــارَ الــدين أيام أذرح وردّ حروبــاً قد لقِــحــنَ إلــى عُقــر

تلافي الدين : تدارك الدين
تشاءَوْا : تباعدوا وتفرّقوا
الكِسَرُ: جانب البيت ، وبيتٌ منقطع الكسر ، أي انهدم جانبه.
أذرح : اسم الموضع الذي اجتمع فيه الحكمان
لَقِحت الحرب : هاجت واشتد سعيرها، وأصلها من لقحت الناقة ونحوها إذا قبلت ماء الفحل ، فهي لاقح.

والمقصود هنا أنه ردّ هذه الحرب ، اللاقح ، وقطع أثرها وحوّلها إلى عاقر.مقطوع أثرها مقضي عليها.فهو يمدح أبا موسى الأشعري ، بفضله وصدق رأيه ، في قضية التحكيم ، وأنه أنقذ الدين والناس ، من العداوة والتفرق ، وكبح جماح الحرب ، وردّ شرّها ، ودرأ خطرها .

فلو كان موقف أبي موسى يومها موقف بلاهة وفشل ، لكان عليه سبة وعاراً، ولسجّله عليه معاصروه ، وتناقلته الأجيال بعده، أما أن تتناقله الأجيال على أنه من مفاخره ، التي كتب الله له بها النجاح والسداد ، ويشيع ذلك حتى يسجله في شعره ذلك الشعر الفحل ، ذو الرّمة، فهذا يشهد -كما أسلفنا- باختلاق هذه الصورة الشوهاء، التي نجرعها لأبنائنا ، وللأسف نعيش عليها كأنها بديهية من البدهيات.

على أية حال أن نقدم تاريخنا ، في هذه القضية ، لأبنائنا بأن اثنين من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم أحدهما كان يبيع دينَه بحكم مصر ، والآخر كان بهذه الصورة من الغفلة، فأعتقد أن هذا مخالف للحقيقة ، ومخالف لطبيعة الرجلين ، ومجانبٌ لما هو موجود في كتب التاريخ ، وفي حاجة إلي أن يعاد النظر فيه، على الأقل ، ياإخواننا احتراماً للمنهج العلمي يجب أن نعرض الروايات والآراء المختلفة.

أما أن نأخذ رأياً واحداً خاطئاً ونعيش عليه، وتتربى عليه أجيال الأمة كلها فهذا لايقره لا الخلق ، ولا العلم، ولا الدين (٧)

(ب) المسلمون والتتار:

هذه القضية تدرس -كمانعلم- بالطريقة الآتية: جاء التتار كالإعصار المدمّر ، واجتاحوا المدن والأقاليم المشرقية، ولم يثبت أمامهم دفاع ، ولم يصمد أمامهم جند ، حتى وصلوا إلي بغداد ، التي لم تكن حاضرةَ الخلافة فقط ، بل عاصمة الدنيا كلّها آنذاك ، ولؤلؤة مدائن العالم كلها يومئذٍ، فدخلها التتار دخول العاصفة الهوجاء ، وخرّت بغداد راكعة بذل الهزيمة !!!

ثم يستمر الحديث بعد ذلك عن عوامل هذا الضعف الذي أودى ببغداد وأدّى بها إلى هذا المصير ، فتفيض الأحاديث عن ترف الخليفة المستعصم ، ويعمل الخيال عمله في وصف الخمريات والنسائيات ، والغناء ، والحرير والذهب ، والفساد والمؤامرات و ... و ... ثم يتجه الحديث إلى منحىً آخر،

---

(٧) ليست هذه دراسة لقضية التحكيم ، وإنما هي نقط عرضٌ للقضية ،وبيان أنها ليست بهذا التبسيط السخيف الذي تعلمناه، ثم هي بعد ذلك في حاجة إلى دراسة منهجية منصفة، بالمنهج العلمي الدقيق ، ونرجو أن يتاح لنا ذلك قريباً.

فيصف بشائعَ التتار ، وفظائعَهم ، وسخريتهم من المسلمين ، وعبثهم بضحاياهم ، ويعمل الخيال في ذلك أيضاً عمله ، فيخيل لقارىء التاريخ أن تلك كانت القارعة التي لا قيامة بعدها ، وأنها كانت جزاءً وفاقاً ، لما فعلته بغداد بنفسها، أو بما فعله المسلمون بنفسهم !!!

وإلى هنا يُسدل الستار ، وينتهي ما يسمى بالعصر العباسي .

وكأن المقصود تقريرُ هذا في الأذهان ، وتأكيدهُ في القلوب ، وتثبيته في الضمائر .

هزيمة بشعة قضت على دولة الإسلام ، وجاءت نتيجة طبيعية ، وثمرة منطقية لسلوك المسلمين ، ولحكم الإسلام ، والخلافة الإسلامية .

ولكن .. أهذه كل الحقائق ؟(بفرض صحة كل مايقال)

ثم لماذا نقف عند سقوط بغداد ، ولا تتزحزح قليلا؟

هل انتهت الدنيا ، ووقف الفلك عن الدوران منذ سقطت بغداد ؟

عفواً اسمحوا لي أن أتوجه إليكم بسؤال ، وليجب كلٌ منكم فيما بينه وبين نفسه : في سنة كم سقطت بغداد ؟(الجواب طبعاً في سنة ٦٥٦هـ)

وسؤالٌ آخر : في سنة كم كانت معركة عين جالوت ؟

(الجواب الصحيح سنة ٦٥٨هـ)

أي كانت عين جالوت بعد سقوط بغداد بنحو عامين فقط .

وبالمناسبة أيها السادة ، قد أجريت هذه التجربة -السؤال عن تاريخ سقوط بغداد وتاريخ عين جالوت والمسافة بينهما- فكانت النتيجة عجباً من العجب ، كان الخطأ في معرفة تاريخ سقوط بغداد قليلاً والتفاوت يسيراً ، أما العجب العاجب ، فكان في معرفة تاريخ عين جالوت ، والعلاقة بينها وبين سقوط بغداد، إذ تفاوتت الإجابات ، وتنافست في بشاعة الخطأ، فبلغت بالمسافة بين المعركتين ثلاثة قرون ونيفاً في حدها الأعلى ونحو خمسمائة سنة في حدّها الأدنى.

فلم هذا التمزيق لتاريخ الإسلام ؟ لم هذا الفصل البشع بين معركتين في حربٍ واحدة في فترة زمنية متصلةٍ واحدة؟ إن معركة بغداد ومعركة عين

جالوت معركتان، أو نقطتان على خطٍ واحد في الصراع بين الإسلام والتتار .

إن معركة عين جالوت لم تأت من فراغ ، وأبداً لم تكن منفصلة عن معركة بغداد ، والمدة الزمنية بينهما نحو عامين فقط ، ولم تكن هذه الفترة بين المعركتين فترة سكون وترقب ، أو فترة سلام ، أو مهادنة ، لا. بل كانت سلسلة معارك متصلة، جاءت معركة عين جالوت ثمرة طبيعية ، ونتيجة لها ، إذ كانت ضربة ثأرٍ قاصمة ، لم تقم للتتار بعدها قائمة.

لماذا إذاً هذا الفصل بين المعركتين ؟ وهما في واقع الأمر مرتبطتان تمام الارتباط، إذ هما عملان عسكريان في حربٍ واحدة !!!

فلماذا هذا التمزيق البشع لتاريخنا ؟ حتى إنه يندر أن تجد مثقفاً ، بل دارساً للتاريخ الإسلامي ، بل متخصصاً فيه - يدرك العلاقة بين عين جالوت، وسقوط بغداد !! ويعرف المسافة الزمنية بينهما.

لا يقولن قائل : إن هذه معركة عسكرية لها نتائجها ، وتلك معركة أخرى لها نتائجها، فلا مانع من دراسة كلٍّ منهما على حدة ، فهذا كلام لا يقول به عاقل .

هل يمكن أن تدّرس أمريكا ، وانجلترا ، وفرنسا ، لأبنائهم تاريخ الحرب العالمية الثانية ، والصراع مع المحور ، فتقف بالدرس عند (بيرل هاربر) و(دنكرك) وسقوط باريس تحت أقدام الألمان، ثم تطوي الأوراق ، لمناسبة أخرى تبين فيها كيف انتهت الحرب بانتصار كل من أمريكا وانجلترا وفرنسا، وتحطيم ألمانيا واليابان ، والثأر (لبيرل هاربر)و (دنكرك) و(سقوط باريس).

وإذا تجاوزنا هذا التمزيق ، فلماذا التهويل البالغ في جانب والتهوين الخانع في جانب آخر ، لماذا التهويل كل التهويل في قوة التتار ، والمبالغة في قوتهم القاهرة المدمّرة، ولماذا التهوين من شأن المسلمين، والمبالغة في ضعفهم وانهيارهم ، لماذا كل هذا ؟

مع أن الثابت أن المسلمين ، قد قاتلوا ، وصبروا ، وصابروا ، بل وانتصروا ، وردّوا التتار عن بغداد ، وأسروا منهم ، وسَبَوا (انظر الجوهر الثمين في سير الخلفاء والسلاطين).

انتصر المسلمون ، وردّوا التتار ، وكانت لهم الجولة الأولى ، على الرغم من أن الوزير ابن العلقمي الخائن ، كان قد احتال في تسريح الفرسان وإضعاف الجيش ، وكان قد كاتب التتار، واستدعاهم ، ودلّهم على عورة المدينة ، وهيأها لهم بتسريح الفرسان ، بدعوى التخفف من نفقاتهم ، ومع ذلك «انتصر المسلمون ، وعادوا مؤيدين منصورين، ومعهم الأسرى ، ورؤوس القتلى ، فنزلوا في خيامهم مطمئنين، بهروب العدو»(بنص عبارة ابن دقماق)

فماذا فعل الوزير الخائن ، الرافضي ، الذي دخل الكفر قلبه؟

« .. فأرسل الوزير في تلك الليلة جماعة من أصحابه بالليل ، فقطعوا شط دجلة ، فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون ، فما كان أحدهم يقوم إلا وهو يخوض في الوحل ، وغرقت خيولهم وأموالهم ، والسعيد منهم من لحق فرساً يركبها.

وكان الوزير قد أرسل إلى هولاكو ، وقال له :« ارجع علينا»، فرجعت عساكر التتار إلى ظاهر بغداد ، فلما أصبحوا دخلوها ، وبذلوا السيف في أهلها ..» (الجوهر الثمين :٧٨).

فلماذا التهويل هناك والتهوين هنا ؟؟

ولماذا تطوى هذه الصفحات ؟

ثم ماذا كان من الجانبين المسلمين والتتار ، بين بغداد وعين جالوت ؟

لقد استمر هولاكو في زحفه ، على مابقي من ديار الإسلام ، وأدرك كل صاحب بصر وبصيرة أن هذا الجيش الذي سكر بنشوة النصر (مهما كان رخيصاً) لن يتوقف، وأنه لابد زاحف إلى الشام ، وغير الشام .

تقدم هولاكو ، بخطة بارعة ، إذ جعله جيشه جناحين ، يتجه أحدهما إلى الشمال إلى (ميّا فارقين) و(ماردين) والجناح الآخر إلى الغرب حتى يكون كفكّي الكماشة.

كان الشام موزعاً بين عدة أمراء من البيت الأيوبي ، وكان أقوى هؤلاء الأمراء سلطان (حلب ودمشق) الناصر يوسف .

وكان الملك الأشرف على حصن (ميّا فارقين)، وأدرك أن القضية واحدة ، وأن إنقاذ (ميّا فارقين) هو في الوقت نفسه إنقاذٌ لدمشق وحلب ، وأدرك أن الوحدة تستطيع أن تصنع القوة التي تردّ سيل التتار ، وتهزم الجيش الذي لايُقهر ، وتكسر الذراع الطويلة.

يحكي ابن العبري في تاريخه: «أن الأشرف ذهب إلى الناصر لجمع الكلمة، فردّه، واستخف برأيه ، وسوّفه بكلام»انظر (الناصر) سوّفه بكلام!!

بل إن الناصر استمرأ السقوط ، فأرسل ابنه بالهدايا إلى هولاكو ، طالباً التحالف معه، وأن يساعده ضد باقي أمراء الشام ، على أن يساعده هولاكو في الاستيلاء على مصر.

اضطر الأشرف صاحب (ميّا فارقين) إلى أن يقف وحده مهما كان الثمن.

فكان حصار ، وكان إنذار ، وكان استبسال ، وكان استقتال ، وكان استشهاد .

نزل الأشرف بين جنوده ، وقال : أنا الآن كواحدٍ منكم ، وخلع شارة السلطنة وشعار الملك ، ونادى: هُبي ريح الجنة .. هُبي ريح الجنة .

واستمر الحصار مدة عامين كاملين ، و جيش التتار ، واقف حائرٌ صاغر أمام حصنٍ ، أمام مدينة من مدن المسلمين.

يقول صاحب النجوم الزاهرة : «وكان في الليل يخرج جنديان من جنود المسلمين اشتهرا بالرماية والجودة فيها، يتستران بالظلام والملابس السوداء يخرجان على جنود التتار ، فيقتلان منها ويصيبان ، حتى اشتد الفزع بالتتار، وأخذ منهم كل مأخذ ، وشاع فيهم أن الجن تقاتل مع المسلمين».

وبعد عامين من المصابرة والمثابرة ، والثبات أمام قوة التتار، ومن معهم من قوات أرمينية الصغرى ، من الصليبين ، بعد عامين كان الزاد قد نفد على طول ما دبروا فيه ، وكان الماء قد نفد على طول ما اقتصدوا فيه ، وانفتح الحصن ، فارتاع التتار ، إذ لم يجدوا به إلا الملك الأشرف ونفراً قليلاً من جنوده ، وكان الجميع قد سبقوهم إلى الجنة.

ومع ذلك لم يستسلم الملك الأشرف ، ولا من معه ، بل ظلّوا يقاتلون ،

هذا الجيش العرمرم ، وأغاظهم الملك الأشرف ، وهو يسخر منهم ، ويهددهم ويتوعدهم بجنود مثل جنود(ميًا فارقين) ومعارك مثل معركة (ميًا فارقين).

ولما وقع في أيديهم وهو يضحك منتصب القامة ، مرفوع الهامة ، مثلوا به أبشع تمثيل ، حيث قطعوا من جسده ، وأطعموه في فمه ، وأخيراً ، جزوا رأسه ، وطافوا بها بلاد الشام ليوزعوا الرعب والفزع.

أيها السادة : لماذا تطوى هذه الصفحة ؟ اسألوا معي عامة المثقفين ، بل خاصتهم : من منهم يعرف شيئاً عن (ميًا فارقين) بل ربما لن نجد من يعرف كيف ينطق هذا الاسم.

إن التاريخ لا يرحم ، ولا يحابي ، ونحن لا نريد أن نحابي أحداً ، فلن ينسى التاريخ أن الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، تقاعس عن نصرة جيرانه، وحاول التحالف مع التتار ، وأنه فرّ منهزماً من حلب ، ثم من دمشق.

نحن لا نريد أن نحابي تاريخنا ، بل نريد الدراسة العلمية الجادة المنهجية الصادقة.

لماذا تطوى هذه الفترة بين سقوط بغداد ، وانتصار عين جالوت.

لماذا لا نذكر تحالف الصليبين مع التتار ، واتفاقهم مع يوهميند صاحب أنطاكية ، ومع هيتوم صاحب أرمينية ، واستغلال لوقوز خان زوجة هولاكو- وكانت مسيحية -في إذكاء الروح والحماسة الدينية ، وأن القساوسة ورجال الدين كانوا يباركون الجند بترانيمهم ، وتقبيل أسلحتهم وأوسمتهم ، ووضع الصليب على جباههم ورءوسهم .

لماذا يطوى كل هذا ؟!

أيها السادة الكرام : لم يكن حصن ميًا فارقين وحده الذي قدم الشهداء والضحايا طوال فترة السنتين بين سقوط بغداد وانتصار عين جالوت ، وإنما كانت معارك تضيء تاريخ أمتي ، وتشرق بها صفحات الآباء والأجداد . وسأوجز الحديث عن ذلك:

* حصن (ماردين) في الشمال بعد (ميّا فارقين) صمد نحو ثمانية أشهر حتى فنيت حاميته.
* حلب التي هرب عنها الناصر يوسف ؛ استماتت في القتال والدفاع حتى قدّمت خمسين ألف شهيد ، وسدّت الطرق بالجثث ، واستباحها هولاكو سبعة أيام ، فأحرق هيتوم ملك أرمينية مسجد حلب ، فردّت المدينة المستباحة بإحراق الكنيسة. التي كان أساقفتها يقاتلون مع التتار.
* كافأ هولاكو الصليبين ، فأعطاهم نصيباً من الغنائم ، وردّ إليهم الممتلكات التي كان حررها المسلمون.
* قلعة (حارم) (الآن في محافظة إدلب) قاتلت ، ثم لبت نداء السلام والصلح، وقبل هولاكو كل شروط الصلح ، ولكنه عاد فغدر بها وأبادها بالكامل .
* دمشق. سلّمت المدينة صُلحاً حفاظاً على تراثها ومجدها، ولكن أيضاً غدر بهم التتار .
* أما قلعة دمشق ، فلم تستسلم (أي استسلم المدنيون فقط أما العسكريون فأبَوا) وقاتلت حتى فنيت الحاميةُ عن آخرها.
* نابلس جاهدت حتى فنيت حاميتها عن آخرها.
* هكذا -أيها السادة- لم يكن الطريق إلى عين جالوت سهلاً ولا لينا، وإن مئات الآلاف الذين استشهدوا في سبيل الله ربما لم يكن أمامهم بارقة أمل في النصر أو النجاة ، ولكنهم آثروا الشهادة ، ضرباً للمثل ، وإعذاراً إلى الله ، وتعليماً لمن يليهم.
* ولذا كان نصر عين جالوت حصاداً لهذا الجهاد كله.

أيها السادة : لا نريد أن نتحدث عن عين جالوت ، والدروس المستفادة منها، والظروف التي أحاطت بها ، والعوامل التي جعلت المسلمين يستحقون هذا النصر المؤزر من الله.

ليس هذا موضوعنا ، ولكن -فقط- نريد أن نقول: من الذي مزق تاريخنا بهذه الصورة ؟ ومن وراء هذا التشويه والتجهيل ؟ وإلى متى يظل ذلك ؟!

وعذراً مرة ثانية إذ أطلت عليكم .

من أسس المنهج الذي ندعو إليه :

وآخر ما نختم به هو الدعوة إلى منهج لدراسة التاريخ ، يقوم على جمع الوثائق الأصلية ، جمعاً مستقصيا -قدر الطاقة- ثم تحقيق المخطوطات منها، ونشره نشراً علمياً منظماً ، مع الاهتمام بكل ما يتصل بهذه الوثائق من برديات وآثار ونحوها.

ثم العكوف على دراسة هذه الوثائق ، دراسة علمية ، ونقدها وتمحيصها ،ووزن الأخبار ، وبيان صحيحها من سقيمها.

ثم يأتي بعد ذلك ، دور التفسير والتحليل والتعليل ، وذلك لا يتم بعيداً عن فهم روح الإسلام ودعوته، والعوامل المؤثرة في الأحداث والدافعة إليها.

وهذه الدوافع هي التي يختلف المفسرون والباحثون في إدراكها وتقديرها.

ومن هنا كان لابد للناظر في تاريخ الإسلام ، لكي يكون نظره صائباً -أن يقف في مركز دائرة الإسلام وأن يفهم روحه ويدرك حقيقة هذا الدين الذي يكتب تاريخه.

وأخيراً أدعو رجال الفكر الإسلامي وكل العاملين في مجال الدعوة الإسلامية أن يتركوا الاستشهاد بالقرن الأول ، فكفاهم استشهاداً به، فالناس يعيّروننا دائماً بأننا لا نستشهد إلا بالقرن الأول ، وكأننا في الواقع نؤكد هذه المقولة التي تقول : إن الإسلام لم يطبق إلا في عشرات السنوات على أحسن تقدير.وتاريخنا منذ القرن الأول ، إلي ما نحن فيه ، إلي قرننا هذا ، مضيء مشرّف والحمد لله، وفيه من الصفحات الناصعة ، ما لو عكفنا عليه، لجعلنا هؤلاء الذين يعيّروننا بأننا لا نستشهد إلا بالعمرين ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز يطأطئون رؤوسهم وينحنون لهذا التاريخ إجلالاً وإكباراً.

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا دائماً لما يحب ويرضى ، وشكراً لكم وجزاكم الله خيراً على صبركم وحسن استماعكم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .